خاتمة الكتاب

في الأيام الأولى من عام 2005، حزم درو إردمان أشياءه من مكتبه في مجلس الأمن القومي، وترك الخدمة في الحكومة، والتحق بزوجه وابنته الرضيعة في سانت لويس، حيث خطط للحصول على عمل في القطاع الخاص. كان إردمان يعمل حول موضوع العراق، في بغداد وواشنطن، منذ نحو ثلاثة أعوام. كان عمله صعباً ومتطلباً. كان يستطيع النوم ليلاً. لكنه مع ذلك كان يذهب إلى بيته، ولديه شعور بأنه لم يقدّم ما يكفي. كان ثمن أرواح الناس عبئاً ثقيلاً. خسر أصدقاء من الأمريكيين والعراقيين، وكان يرى نفسه محظوظاً، لكن لو كان عازباً لبقي في العراق.

في سانت لويس، حاول إردمان، ألا يتابع الأخبار عن ذلك الجزء من العالم. وعلى الرغم من أنه لن يعود مؤرخاً محترفاً، فقد أراد أن يكون على مسافة كافية ليفكر في الحرب بشكل تاريخي، مما قد يستغرق سنوات. كانت الأسئلة الكبرى تنتظره وآخرين مثله، منها: هل سينجح الأمر؟ كيف كان يمكن فعل هذا بشكل أفضل؟ إذا لم يتم فعل هذا بالطريقة الصحيحة، فهل كان من الضروري القيام بذلك أصلاً؟، لكن إردمان لم يكن مستعداً بعد للإجابة عنها.

ومع ذلك، فقد قام بالفعل بقراءة كتاب -من الغلاف إلى الغلاف، أول مرة منذ مدة- في موضوع له صلة. كان ذلك الكتاب هو Bureaucracy Does Its Thing/ البيروقراطية تقوم بدورها، بقلم «Blowtorch» بوب كومر، الذي كان يدير برنامج التهدئة في فييتنام في عهد جونسون. كانت نسخ منه توزّع في بغداد، وقال بعض الناس هناك: «إن كنت تريد أن تفهم ما يجري هنا؟ فاقرأ هذا التقرير». حطّت نسخة من الكتاب على مكتبه في واشنطن. كان إردمان يرفض في السابق تشبيه الوضع بفييتنام، ولا يزال: فالعراق من الناحية الإستراتيجية مركزي أكثر جدًّا، كما أن طبيعة التمرّد مختلفة، وفرص النجاح في العراق أكبر: الحكومة الأمريكية المستمرة، والجهود الجارية لجعل الفرعين المدني والعسكري يعملان بتناغم،

والعوائق المؤسساتية التي جعلت الأمر صعباً جدًّا، والجهود المتعثرة للتكيف بشكل تخيلي مع أنواع جديدة من الحرب، والصعوبة التنظيمية التامة لإنجاز شيء على مقياس العراق. تناول إردمان هذا كله في أطروحته، وحين أعاده كتاب كومر إليه، اكتشف أنه كان قد تنبأ بجزء كبير من تجربته. قال إردمان: «هناك أشياء كثيرة حول العراق تناسب نمط الأشياء التي كنت أفكر فيها وأعمل عليها سابقاً». فمثلاً، في عام 1917، بينما كانت القوة الأمريكية الاستطلاعية تستعد للإبحار إلى أوروبة، بحث الجنرال جون بيرشينغ حوله عن خطة فلم يجد: «لذا لم يكن الموضوع مفاجئاً لي، والآن فقط حين أصبح لدي قليل من الوقت أستطيع أن أجمع الأشياء مع بعضها في لوحة فسيفسائية، وأرى بعض الاستمراريات بوضوح أكبر».

كانت أطروحته قد ركّزت على مراوغة النصر. فهزيمة الجيش الياباني لم تأتِ مع الاستسلام في أغسطس/ آب 1945 على متن السفينة الحربية USS Missouri، وإنما بعد ست سنوات من ذلك، مع نهاية الاحتلال الأمريكي وولادة اليابان الديمقراطية؛ لأن النصر عملية وليس حدثاً، وله أهداف سياسية جوهرية، وليس أهدافاً عسكرية، والنصر في العراق، بما في ذلك تغيير السياسة العراقية، ليس في متناول السلطة الأمريكية وحدها. قال إردمان: «بشكل أساسي، إنه دوماً يتعلق بالعراقيين»، فالأهداف الرئيسة لا يمكن أن يحققها إلا العراقيون. قد تكون هذه الأهداف أهدافاً أمريكية بشكل غريب. نحن نستطيع المساعدة. لكننا في وضع لا يمكن فيه تحقيق النصر إلا عبر جهود الآخرين. إنه وضع متناقض. قد تكون لدينا القوة، لكن بسبب طبيعة أهدافنا تحديداً، لا نستطيع استخدام قوتنا لفرض نتيجة محددة. إن مصيرنا مرتبط بالآخرين ارتباطاً أساسياً».

في الأسبوع ذاته من شهر يناير/ كانون الثاني الذي غادر فيه إردمان واشنطن، تم استدعاء كولن باول إلى البيت الأبيض لمحادثة وداعية بينه وبين الرئيس. كان باول طوال الوقت المعارض المطيع الهادئ بشأن العراق، وكان قلقاً بشأن ضرر التحالفات، ومشككاً (ولكن ليس بالقدر الكافي) بادّعاءات الإدارة المحمومة أكثر حول الأسلحة والإرهاب، وواقعياً بشأن صعوبات ما بعد الحرب. لكن سمعته تشوّهت بشكل سيئ، حين ثبت أن خطابه للأمم المتحدة قبل الحرب حول الأسلحة العراقية زائف في معظمه. وبالرغم من أن العراق

أصبح أكثر فأكثر مسؤولية بالنسبة لوزارته، إلا أن باول قد خسر كل معركة تم فيها اتخاذ قرارات حاسمة. كانت مدة خدمته وزيراً للخارجية خيبة أمل كبيرة. في الأشهر الأخيرة لباول في وزارة الخارجية، نقل أحد مساعديه عنه إجابة تشرشل لشخص علّق على جحود الشعب البريطاني لتصويتهم ضده حتى قبل الفوز بالحرب العالمية الثانية، قال تشرشل: «لا تبحث عن الامتنان ولا تتوقعه، لكن احصل على الراحة التي تستطيع الحصول عليها من اعتقادك بأن جهودك بناءة للهدف الذي تريد». وكما يعتقد المساعد، فإن باول كان يخدم هدفاً بنّاءً. ربما كان هذا الهدف أقل مستوى مما التزم به باول. والآن، أسرع مما أراد، تُستبدل بهكوندوليزا رايس، الناجية البيروقراطية الفطنة.

بعد بضع دقائق صعبة في المكتب البيضاوي، أدرك باول أن بوش لم يكن لديه فكرة عما كان يفعله وزير خارجيته هناك. تم استدعاء رئيس أركان البيت الأبيض، أندرو كارد، لكنه كان يجهل الموضوع أيضاً. من الذي دعا إلى الاجتماع؟ بدأ يظهر أن من الممكن تماماً أن نائب الرئيس الشبح قد رتّب لإذلال زميله القديم وعدوّه الحالي عند مغادرته. سحب باول نفسه، وأعلم الرئيس أنه لم يأتِ لأجل اجتماعهما الأسبوعي، وإنما ليودّعه. وحين وجد أنه وحده مع الرئيس ربما للمرة الأخيرة، قرّر باول أن يقول ما في ذهنه دون قيد. فناقشه بأن وزارة الدفاع لديها سلطة أكثر من اللازم في تشكيل السياسة الخارجية، وحين طلب منه بوش مثالاً على ذلك، لم يذكر باول رامسفيلد، الوزير الذي انتصر عليه بشكل بيروقراطي، ولم يذكر وولفوفيتز، الرجل الأول في الشأن العراقي، وإنما ذكر المسؤول الثالث في الوزارة، دوغلاس فيث، الذي سمّاه باول العضو الحامل لبطاقة حزب الليكود. وللتمهيد لكلامه، انتقل باول إلى المفاوضات حول كورية الشمالية، ثم عاد إلى الشأن العراقي: فإذا لم يتحسن الوضع هناك بحلول الأول من إبريل/ نيسان بشكل كبير، فسيكون الرئيس بحاجة إلى إستراتيجية جديدة وأناس جدد لتنفيذها. بدا أن بوش عاد لرشده: لم يكلمه أحد بهذه الطريقة في المكتب البيضاوي. لكن لأن تلك كانت المرة الأخيرة، فقد تجاهل باول كل مثال للاستياء، وتابع إلى أن قال ما كان عليه أن يقوله، وما كان عليه أن يقوله منذ وقت طويل ربما.

في الأسابيع اللاحقة بدا أن باول كان مخطئاً بشأن العراق. فقد كانت الانتخابات هي أكثر حدث حاسم منذ الإطاحة بالنظام، وظهر أن إصرار بوش على عدم تأجيلها كان أحد

أفضل قراراته. أعطى التصويت العراقيين ثقة جديدة بأنفسهم وحتى بمؤسساتهم، إلى حد ما. في صحوة الانتخابات، بدا أن التمرد فقد قوته. لكن الحكومة العراقية الأولى المنتخبة، والرئيس الكردي الأول في تاريخ البلاد، واجها مع ذلك أكثر المهام الرهيبة: ألا وهي بناء القوات الأمنية، بحيث تستطيع الديمقراطية الهشة الدفاع عن نفسها، واكتساب ثقة الشعب، وكتابة دستور، وفرز أكثر المشكلات صعوبة، كمكان البعثيين السابقين في الحكومة والجيش، ودور الإسلام في المجتمع والقانون، ووضع كركوك. كان درو إردمان يحب أن يقول: إن هذا كله يتعلق بقدرة القادة الجدد للعراق على رسم الخطوط على الخريطة.

خارج العراق، كانت هناك ريح تاريخية أخرى تبدأ بالهبوب عبر الشرق الأوسط. تجمّع اللبنانيون بأعداد كبيرة في بيروت؛ للمطالبة بانسحاب القوات السورية، فوافق الرئيس المصري حسني مبارك بتردد على انتخاب رئاسي متنازع عليه، فازدادت جرأة المعارضة في سورية، والمفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية المتوقفة عادت للحركة للمرة الألف. كان مبلغ الاعتماد الذي ذهب للعراق، والمبلغ الذي ذهب للحركات الداخلية لكل بلد، والمبلغ المخصص للحظ يعتمد على من تطلب منه والوضع الذي يريد تسويغه. كان المحافظون الجدد في الإدارة الأمريكية قد تعلموا من عام 2003 لم يكرروا الإعلان عن النصر إلا سراً، حتى حين عاد العنف في العراق أقوى من السابق.

عاد كاليف سيب، الضابط المتقاعد في القوات الخاصة الذي كان قد درّب الجنود في السلفادور، إلى العراق في نوفمبر/ تشرين الثاني 2004 بعد اجتماع مع الجنرال جورج كاسي الذي خلف سانشير في القيادة، وطلب خبيراً في مكافحة التمرّد، فقوبل بصمت رهيب: لم يكن هناك خبير في مكافحة التمرّد. وفي بغداد مجدداً، وجد سيب أن الجيش الأمريكي لا يملك خطة فاعلة تعالج التمرد بطريقة جادّة. ساعد مع فريق من ضباط أمريكيين وبريطانيين وغيرهم في إعداد إستراتيجية جديدة تركز أول مرة على قوات الأمن العراقية، مع آلاف المستشارين الأمريكيين الذين يعملون بشكل مكثف مع الكتائب الجديدة. وفي فبراير/ شباط 2005، نقل عن مسؤول لم يكشف عن اسمه قوله: «تتضح مما يتعامل معه الآن القادة رفيعو المستوى الحاجة إلى خطة لحملة مكافحة الإرهاب». بعد نحو سنتين من سقوط النظام، قبل الجيش أخيراً حقيقة أن حرب العراق لم تنتهِ. لكن سيب لم يكن

يتوهم بنصر سهل. «ستكون هذه حرباً طويلة. سيُقتل الأمريكيون في شوارع بغداد بعد خمس سنوات من الآن».

ظل معظم مهندسي الحرب في السلطة: بوش وتشيني، ورامسفيلد ورايس. كانوا نادراً ما يتحدثون عن العراق الآن لدرجة أن المرء كان يمكن أن يظن أن الأمريكيين لم يعودوا يموتون في العراق، وأن المهمة قد أُنجزت أخيراً. في منتصف عام 2005، ومع دخول العراق من جديد في العنف الذي كان يقتل عشرات من الناس أو أعداداً كبيرة كل يوم، كسر تشيني صمته ليعلن أن التمرد كان في «النزع الأخير». وكان قد قال الشيء ذاته بعد أسر صدام، قبل سنة ونصف السنة. كانت سياسة الإدارة بشأن العراق عائمة تماماً، ووصل الأمر إلى قول هذه الأشياء، أملاً في تحقيقها.

أعلن البنتاغون أن دوغلاس فيث سيغادر؛ ليقضي مزيداً من الوقت مع أسرته. وبعد رحيل دوغلاس فيث بوقت قصير، وصف نفسه لصحافي بأنه أحد أتباع إدموند بروك، فيلسوف الثبات والتقاليد البريطاني المحافظ من القرن الثامن عشر. وقال: إن إدارة بوش لم ترغب قط بفرض القيم الأمريكية في العراق الذي كانت فيه «الديمقراطية الشيعية» بديلاً مقبولاً بشكل ممتاز. من الناحية الفلسفية، بدا ذلك عذراً، حوّل الفوضى والعنف الذي يحمل فيث المسؤولية الكبرى فيه إلى مثال للحكمة وضبط النفس من قبل أمريكة في السماح للعراقيين بالقيام بالأمور بطريقتهم. لكن كان من المحتمل أيضاً أن فيث وغيره في الإدارة، لم يكن لديهم نية من البداية بالقيام بأي شيء أكثر من إزالة المستبد والرحيل بعد ذلك.

أصبح بول وولفوفيتز رئيس المصرف «البنك» الدولي، وهو المنصب الذي لجأ إليه روبرت ماكنمارا بعد مغادرته للبنتاغون في ذروة حرب فييتنام. لكن فييتنام كانت حرب ليبراليين، كما أشارت ليسلي جيلب. أخذ وولفوفيتز المنصب بصفة تبرئة له وليس تكفيراً عن ذنبه. قال مسؤول سابق رفيع المستوى: «قد يكون بول أكثر الناس في هذه الإدارة الذين كانوا يجدون صعوبة في النوم ليلاً؛ لأن لديه ضميراً. لست متأكداً إن كان الآخرون لهم ضمير». وحين سألته مَن أيضاً كان يجد صعوبة في النوم؟ قال المسؤول السابق: «هذا سؤال جيد»، ثم أعاد ما قال. لكن مهما كان وولفوفيتز يقوم به من البحث عن الروح، فإنه يؤمن دوماً بضرورة الحرب، وقد يثبت أنه محق بعد خمسين عاماً «وإذا أريقت بعض الدماء،

ومـات بعضـ الناس فهذا جزء من الحيـاة». هل كان وولفوفيتز يشـعر بإراقة الدماء؟ قال المسـؤول السـابق: «أظن ذلك على أي حال، أود أن أظن ذلك. لا أظن أنه سيعجبني إن كان لا يشعر بذلك».

لما كان مصير أمريكة مرتبطاً بمصير العراق الآن، فقد تمر سنوات قبل أن يمكن أخيراً الحكم على حكمة الحرب. حين سئل الرجل الثاني في ماو، شاو إن لاي، عام 1972 عن رأيه في أثر الثورة الفرنسـية؟ أجاب: «إن من المبكر معرفة ذلك». أخذ بول وولفوفيتز وغيره من كبار منظّري الحرب بالنظرة الطويلة للتاريخ أيضاً؛ وإلا لما كان هناك غزو أمريكي للعراق، أو على الأقل، ليس بهذه السرعة. أما المسؤولون البراغماتيون الذين سألوا أسئلة صعبة عن الحلفاء والدليل والتوقيت والخطط، ولا سيما أولئك الذين تم تغييرهم في المعركة، مثل باول فلم يكن من المحتمل أن يخاطروا من أجل فكرة، وإن كانت مهمة، كتغيير الشـرق الأوسـط مـن حاضـنة للقتل الجماعـي إلى مجموعة من الـدول العادية شـبه الديمقراطية. لم يكن هناك تهديد فوري من العراق، لم يكن هناك خطر محدق. كان يمكن للحرب أن تنتظر.

من له حق أن يقرر إن كان الأمر يستحق أو لا؟ يسأل كريس فروشيسر، الذي فقد الكثير في العراق، نفسه هذا السؤال كل يوم، لكنه لم يصل إلى إجابة أقرب من الفخر بخدمة ابنه والحـزن لموته. لم يكن ليختار أن يتخلى عن كيرت لأجل الديمقراطية في الشـرق الأوسـط، وهـو الآن يريـد أن يكون موت كيرت جـزءاً من خير تاريخي. ومع ذلك، على فروشيسـر أن ينسـحب دوماً، كما قال، كلما أصبحت الرؤية كبيرة جدًّا، واللغة مجرّدة جدًّا، وإلا فسيفقد الشيء الأكثر أهمية: حياة واحدة، وموتاً واحداً.

يبقى الوجود اليومي في العراق كابوساً. في الديمقراطية الأحدث في العالم، معظم الناس ليسـوا أحـراراً في التعبير عما يـدور بأذهانهـم، أو في الانتماء إلى مجموعـة محددة، أو في ارتداء ما يريدون، أو حتى في المشي في الشوارع دون المخاطرة بحياتهم. في أسوأ أيام العنف، قـال بعضـ العراقيين: إنهم كانوا بحال أفضـل في عهد صـدام، وإن أمريكة كان يجب عليها ألا تطيـح به إذا كانت النتيجة سـتكون الكثـير من إراقة الدم. على الرغـم من أن قليلاً من العراقيـين الذيـن عرفتهم قالوا ذلك، ولكونهـم خبراء في المعاناة، فهم أقـدر من الناس في

القاهرة أو روما أو لبنان أو واشنطن على مقارنة الثمن بالمكسب. حين قلت لأسيل: إنه بعد أن اتضح عدم وجود الأسلحة شعر بعض الأمريكيين بالخيانة من قبل إدارة بوش وأحمد الجلبي، صاحت: «نحن أهم من الصواريخ!» فما قدّمته الحرب لأمثالها من الناس هو الأمل.

جعلت النظرة الطويلة للتاريخ الحرب ممكنة، ومكلفة. انشغل درو إردمان خارج الحكومة بالصفة المؤسساتية لأخطاء الإدارة، لكنه في بغداد في صيف عام 2003 كان قد قال: إن النجاح أو الإخفاق يعتمد بشكل كبير على تقدير الأفراد. وقد وصلت إلى اعتقاد بأن أصحاب المناصب الذين يحملون المسؤولية الأكبر عن العراق قد أظهروا لا مبالاة بحياة البشر وصلت إلى الإهمال الإجرامي. ولأنهم كانوا مقيّدين بأفكار مجرّدة، ومقتنعين بأنهم على حق، وعاجزين عن نقد الذات، وغير مهتمين بالمحاسبة، فقد حوّلوا تعهداً صعباً إلى تعهد قاتل بلا مسوغ. وحين سارت الأمور بشكل خاطئ، وجدوا أشخاصاً آخرين يلقون عليهم اللوم. كان من الممكن دائماً الفوز في حرب العراق، ومازال ذلك ممكناً. ولهذا السبب تحديداً، فإن تهوّر مؤلفيها يصعب أن يغتفر.

في أحد أيام شهر يناير/ كانون الثاني، التقيت ثلاثة رجال عراقيين كانوا يتناولون الغداء في ردهة فندق فور سيزنز في عمان: شيعي وسني وكردي. كانوا في الأردن في رحلة عمل، لكنهم كانوا يعيشون في بغداد أيام حكم صدام. كانوا يرتدون سترات مع ربطات عنق، ويتحلون بالأسلوب اللطيف للجيل العراقي الأقدم، وقد دعوني إلى مائدتهم. كان الكردي وهو خبير مالي واسمه محمود، والسني وهو مهندس معماري واسمه هشام، صديقين لوالد كنعان مكية. وقد ذكر هشام وهو أكبر الثلاثة سناً مع ابتسامة خفيفة أنه قد ورد ذكره في كتاب مكية النُّصب. كان المهندس المستشار في إنشاء نصب تذكاري للعراقيين الذين قضوا في الحرب مع إيران، نُصب الشهداء، وكتب ثناءً متملقاً «للرئيس القائد» عند إزاحة الستار في عام 1983، الذي اقتبسه مكية بكامله.

قال محمود: «كان كنعان مكية مثالياً جدًّا وبعيداً عن الواقع. لقد أتى إلى بغداد، ورأى أن كل شيء كان مختلفاً».

قال هشام: «كل من كان يعيش في الخارج كان يظن أن العراق مختلف.

قال محمود: «كان هنالك فرق واضح، من أول يوم، بين طريقة تفكير من عاشوا في الداخل وطريقة تفكير المغتربين، يمكنك رؤية ذلك. الآتون من الخارج، التحرريون المثاليون، أرادوا أن يتقلد السلطة أولئك المعتنقون لفكر جيفرسون. كان ذلك شيئاً جيداً. ولكن على الأرض، يوجد أناس مازالوا يعيشون في العصور الوسطى، العشائر والمحرومون والمجرمون والمتدينون. يجب أن يتم استرضاء كل هؤلاء أو أن يفوزوا. لا يمكن استبعادهم ببساطة. نحن نعرف هؤلاء الناس، كنا نعيش بينهم».

في عهد صدام، كلما سافر هشام من بغداد إلى لندن، كان المغتربون هناك يفترضون أنه عميل للنظام. هشام الذي سُجن وحكم عليه بالإعدام بعد أن بدأت كتل البلاط الإسمنتية لنصب الشهداء تلتف من الأطراف بشكل غير متوقع، كان يقول لهم: «بعد أن تقوموا بثورتكم وتتخلصوا من صدام، سيكون هناك مليون بعثي. ماذا ستفعلون معهم؟ هل هم جميعاً أعداء، يجب وضعهم جانباً؟» لم تكن لدى المغتربين إجابات، وإلا لكانت لديهم كلمة واحدة هي اجتثاث البعث. قال هشام: «لم يكونوا مستعدّين لما يواجهون الآن، لم يفكروا في حل لمليون بعثي». وأضاف أن كنعان مكية قد أعطي بعد سقوط النظام دوراً أكبر من اللازم في السياسة العراقية.

قال محمود: «أنا لا أوافقك الرأي، نحن بحاجة إليه في العراق. نحن بحاجة إلى أفكاره».

قال هشام: «أنا أتفق معك، لكن هذا الموقف يجب ألا يحكم البلاد. أنا بحاجة إلى شخص كهذا لأناقشه، لأسمع أفكاره، لأتعلم منه. لكنني لا أستطيع أن أقبله مشرعاً».

قال محمود: «حين تُقطع رؤوس الناس، ويكون هناك كثير من القسوة في البلاد، تكون سعيداً لوجود شخص مثل كنعان مكية؛ لأنه مثالي جدًّا. أفكاره جيدة جدًّا، فنحن بحاجة إليه، ولو كان حالماً».

بعد شهرين، في مارس/ آذار، ذهبت لرؤية مكية في بيته المكسو بالألواح الخشبية في شارع جانبي في كامبريدج. لم يكن هذا هو المكان الذي كان لنا فيه كثير من المحادثات قبل

الحرب: فقد اشترى هذا البيت بعد طلاقه وملأه بالكتب. حين وصلت، كان العمال يضعون الطبقة الأخيرة من الطلاء على الخشب قبل صقل الأرضيات. لم يكن مكية وحده في بيته الجديد. كانت معه ولادة الصراف. قبل ستة أسابيع، كانت ولادة قد حزمت حقيبتين صغيرتين، وتركت زوجها وكل شيء آخر، لتأتي إلى أمريكة وتلتحق بمكية. كان ذلك تصرفاً غريباً فيما يتعلق بامرأة عراقية، لم يستطع أصدقاؤها أن يفهموا لماذا لم تفعل الشيء العادي، بأن تبقي علاقتها سراً وتستمر في العيش على أنها امرأة محترمة في المجتمع العراقي. ولأن الإشاعات تسري الآن في أنحاء بغداد، فقد رفض ابناها الأكبر سناً أن يتكلما معها، وكانت ولادة بائسة. ومع ذلك فقد اتخذت قراراً، وكانت مرتاحة لهذا القرار.

قالت ولادة: «لقد تعبت من الكذب، لم أعد أستطيع التظاهر». كان مكية لا يزال يسافر إلى بغداد ويعود، لكنها كانت تريده أن يتوقف عن الذهاب، لأجلها ولأجله. قالت ولادة: «إنهم منافقون. إنهم يستغلونه، إنهم لا يستحقون شخصاً ساذجاً وطيباً مثل كنعان. أنا أعرف الثقافة العربية، أما هو فلا يعرفها».

ذهبنا لتناول العشاء. كان الثلج يهطل محولاً جوانب الطرقات إلى برك من الثلوج الذائبة. عدت بالذاكرة إلى الليلة المثلجة في كامبريدج عام 2002 حين أمضيت أنا ومكية ساعات ونحن نناقش مستقبل العراق بعد صدام، حين كان كل شيء لا يزال مُنتظراً. كان حالماً، وكان لأفكاره في تلك الليلة نقاء الأفكار غير المدروسة/ غير المجرّبة، التي لا أزال بعد أكثر من عامين أربطها بالثلج الأبيض خارج نافذته. حدث الكثير منذ ذلك الوقت، بحيث لا يمكن أن يبقى شيء نقي. سبق أن رأيت مكية مرات كثيرة، في كامبريدج ونيويورك وواشنطن ولندن وبغداد، لكن لم أستطع أن أصنف مشاعري. كان صديقي وكنت أحبه. كان قد كرّس حياته لفكرة عن العراق كنت أحملها. وقد ربط تلك الفكرة بآلية الحرب، وقد قُتل كثير من الناس. لا تبقى أي فكرة سليمة، بعد أن يلطخها التاريخ بالدماء، والتاريخ لم يتبع مخطط مكية. في بعض الأوقات، كانت رؤيته للعراق مخالفة جدًّا لما رأيت وسمعت هناك، لدرجة أن الحلم بدا غير مسؤول وخطير. أردت أن أعرف ما فعلته به السنتان الماضيتان.

بـدا أن مكية يخمن أفكاري. بينما كنا نتناول حسـاء العدس، فذكر صـديقه مصـطفى الكاظمـي المغـترب الـذي التقيته في لنـدن وعـاد إلى بغـداد، وكان يعمل الآن في مؤسسـة مكيـة التذكاريـة. لم يكن مصـطفى مثقفـاً، لكنه كان واحـداً من المغتربين الذيـن أظهروا حكمـة حقيقية حـين كان يناقش الحقائق علـى أرض العراق. كان الأكـثر أهمية هو العامل البشـري المحيّر. قال مكية، وشـعرت أنه كان يتكلم عن نفسه: «لم يكن الاختبار الأكبر الذي واجهـه المغتربون العراقيـون العائدون اختباراً للأفكار كانت جميع الأفكار أساسـاً موجودة وصـحيحة. نعم الأفكار مهمّة. لكن الامتحان كان امتحاناً للشخصـية. وهنا أخفقوا جميعاً في التطبيق العملي». كانت البرامج والتصـريحات تهيمن على عالم السياسة في المهجر، بما فيها كثير مما كتب عنه مكية أو وقّع عليه. «لكن في الأداء الفعلي لهذه السياسة منذ إبريل/ نيسان 2003، أصبحت الشخصية الإنسانية فجأة، والميزات الشخصية الفردية، مهمة جدًّا. لم يسـقط النـاس علـى وجوههم أو يلمعوا بسـبب أفكارهم العظيمة، وإنمـا لميزات محددة في الشخصـية اكتسـبت فجأة أهمية كبيرة في الممارسـة الفعلية للسياسـة في هذه الأوقات الصاخبة جدًّا».

قـال مكية: إن الأفكار مثل اجتثاث البعث وحل الجيش لم تكن خاطئة. وهو لا يزال يؤمن بها. لكنه قد أمضـى حتى الآن نحو سـنتين في العراق، وكان العاملون في مؤسسة الذكرى في بيته في بغداد يفحصون شهرياً بين خمسين ومئة ألف وثيقة من وثائق البعث. أظهرت هاتان السـنتان وتلك الوثائق لمكية تعقيد العراق سـواء في عهد صدام أو حتى اليوم. كانت الأفكار بحاجة إلى هذه المعرفة البشرية العميقة. كان اللوم غامضاً في الغالب. وكان الناس يقومون بأشـياء لأسباب أكثر تعقيداً، وكانت السياسة أضيق من أن تفسر تصرفاتهم وتحكم عليهم جميعاً، فقد كان الفهم الحقيقي يتطلب من مكية حباً حقيقياً، وأدباً.

أدرك أنه غير مناسـب للسياسة، وانسحب من العراق، وابتعد عن صديقه القديم أحمد الجلبي. كان مكية يضـع طاقته في مؤسسـة الذكرى التي أجّرتها مدينة بغداد مسـاحة كيلو متر مربع في وسطها، حيث كان السيفان المتصالبان وأرض الاستعراض تعرض رؤية صدام بكل ما فيها من وحشية. أراد مكية في الواقع أن يقلب معنى النصب رأساً على عقب، جاعلاً منه تذكاراً لضحايا صدام.

بينما كنا نتحدث وضعت ولادة رأسها على كتف مكية. كانت منهكة، وعدنا إلى بيتهما مشياً على الأقدام تحت الثلج. شغل عمال التمديدات الصحية الماء في الحمّام الجديد، وأصرّ مكية بحماسه الذي يميزه أن نشاهده أنا وولادة بينما يفتح الدُّوش. كان رأس الدُّوش موضوعاً في الزاوية، وحين أتت المياه، تناثرت في نصف مساحة الحمّام. ضحكت ولادة قائلة: «هذا هو كنعان».

ذهبت ولادة لقضاء قيلولة، وأعدّ مكية قهوة تركية. بعد وقت قصير، كان سيذهب لإحضار ابنته؛ لتقضي معه عطلة نهاية الأسبوع. وبينما كنا نقف في المطبخ، كان يفكر في مشروعه حول نصب السيفين المتصالبين. كان يأمل أن يزور جيل جديد من العراقيين التذكار بعد أن ينتهي ويعلموا ما تم فعله في بلادهم. لم يرد منهم أن يشيروا بإصبع اللوم، ولكن أن يستخلصوا درساً بشرياً ويقولوا: «يا إلهي، ماذا حدث هنا؟ أي شخص في ظروف معينة يمكن أن يفعل أشياء رهيبة للآخرين. يجب ألا نسمح لتلك الظروف أن تحدث في بلادنا مجدداً». يمكن أن تولد شخصية عراقية جديدة من هذه الاعترافات ومراقبة الذات.

كانت القهوة التركية تغلي وتفور على الموقد.

قال مكية: «أعتقد أن أحمد هو الذي قال عني مرة: إنني أجسّد انتصار الأمل على التجربة».